اجتهادات
سعادةُ الجامع الصيادَّ

كم هو مراوغُ مفهوم السعادة. وما أشد سذاجة محاولات قياس مدى سعادة الكائن البشرى. السعادة أمرُ نسبى يختلفُ من شخصٍ إلى آخر حسب تكوينه, وإن بدا ممكنًا تصنيف البشر فى نوعين. السعادةُ عند أحدهما تنبثق من الداخل, ولدى الثانى برانية ترتبطُ بالأشياء الحسية0 ولكنه تصنيفُ فضفاض وشديد العمومية.

هذا بعض ما دار فى ذهنى بشكلٍ عابر حين عدتُ مُجددًا إلى تصور كل من روسو وهوبز لحياة البشر الأولى، التى يُطلق عليها حياة الطبيعة، لغرض بحثٍ أكاديمى أعملُ عليه. ليست لهذا البحث علاقةُ بمفهوم السعادة، ولكن تناقض تصورى روسو وهوبز يُغرى بإجراء تمرينٍ ذهنى بشأن حالة الكائن البشرى فى تلك المرحلة التى تعامل فيها مع الطبيعة بشكلٍ فطرى، وعاش على جمع موارد نباتية وصيد ما تيسر من الحيوانات. فهل

كان هذا الجامعُ الصيادَّ أكثر سعادة من المزارع والصانع، ثم المهنى والعالم والمفكر، فى مراحل تالية، على الأقل من حيث إنه كان خاليًا من الهموم والأمراض النفسية التى فتكت، ومازالت، بالبشر فى العصور التالية؟

جواب روسو يحمل معنى الإيجاب رغم أن حياة ذلك الجامع الصيادَّ كانت أكثر مشقة، بعكس جواب هوبز الذى نظر إلى تلك المرحلة عبر نظارةٍ شديدة السواد، فتخيلها موحشةً ووحشيةً إلى أقصى مدى. وأىُ جوابٍ عن سؤالٍ افتراضى, وفى غياب القدر المعقول من المعرفة عن أنماط الحياة فى تلك المرحلة, هو بدوره افتراضى ومرتبط بخلفية المُجيب وطريقة تفكيره.

وإن سُئلت فجوابى أقرب إلى ما تصوره روسو لأسبابٍ لا يتسعُ المجال إلا لواحدٍ منها. كان عددُ البشر قليلاً جدًا, ولم يكن ممكنًا جمع أو صيد كميات كبيرة من الطعام لاستحالة تخزينه، فكانت الحاجاتُ محدودةً للغاية إلى حدٍ لا يستدعى صراعاتٍ ضارية. ولهذا كان تصور روسو منطقيًا, بغض النظر عن الحقيقة التى لا نعرفُها بعد,

عندما رجح أن الجامع الصيّاد عاش فى الأغلب الأعم حياةً هادئة يتوقُ بعضُنا إلى مثلها اليوم فيهرعون كلما استطاعوا إلى مناطق تعيدُهم إلى مرحلة الطبيعة الأولى، طلبًا للسكينة بعيدًا عن بشاعة عالمنا الذى يسوده التوحش.